الاحباط وخيبة الأمل تغذي القتال لديهما وليس الاستراتيجية

اسرائيل وامريكا تختنقان داخل عظمتهما وقوتهما ولا سبيل أمامهما إلا الاعتراف بالهزيمة

■ هناك على ما يبدو لحظة تبدأ فيها كل دولة قوية بالاختناق من قوتها وعظمتها. هي قوية جدا ومسلحة حتى أخمص قدمها إلا انها عاجزة في مواجهة قوى أصغر منها بكثير وأقرب الى البدائية لدرجة ان الاحباط وخيبة الأمل تؤدي وحدها الى تغذية القتال ـ وليس الاستراتيجية أو الأهداف المرسومة او المكانة الاعتبارية، ما يحركها فقط هو غطرستها الحمقاء.

دولتان شقيقتان وقعتا في أسر هذه الوضعية: الولايات المتحدة في العراق واسرائيل في المناطق. واشنطن حققت كل مطالبها في العراق تقريبا: صدام حسين سقط، وحكومة جديدة تشكلت من خلال انتخابات ديمقراطية، والعراق لم يعد تهديدا استراتيجيا اقليميا كما كان قبل الحرب، الا ان النتيجة الحقيقية لهذه الحرب كانت: الدمار الكامل، ذلك لان الدولة العراقية ليست قائمة تحت مظلة «النظام الجديد» الذي أقيم فيها، وكأن احد ما قد خطط لتدمير الدولة العراقية حتى لا تشكل تهديدا بالمرة.

مئات آلاف المدنيين قُتلوا والملايين هربوا، أما اجهزة التعليم والقانون والرفاه فحدث ولا حرج. سوق السلاح مزدهر ولم يعد بامكان أحد ان يحصي عدد العصابات والميليشيات والخلايا الارهابية التي تتحرك هناك بكل حرية. حتى ايران طولبت بالمساعدة، والممثلون الامريكيون يقومون باجراء المباحثات مع قادة الميليشيات التي تفتك بالناس بلا تمييز. الهدف الوحيد الذي بقي لهذه الحرب هو الانسحاب السريع من هناك. بعد سقوط أكثر من ألفي جندي امريكي أصبح الامريكيون يبحثون عن متطوع لأخذ زمام المسؤولية عن الساحة العراقية.

اسرائيل عالقة على مسافة ألف كيلومتر من بغداد في دائرة خانقة ـ توأم. هنا ايضا تبدو الامور وكأنها انجاز محقق: حكومة حماس مشلولة، والعالم يقاطعها كما طمحت اسرائيل، ولا حوار مع الارهاب ولا توجد أي ضغوط لتحريك العملية السياسية. ولكن حاسوب الجيش الاسرائيلي قد أصيب بالاضطراب واختلطت عليه الامور من كثرة العمليات التي قام بتخزينها في ذاكرته بشتى الأسماء. تلك العمليات التي يُمطر بها الجيش الاسرائيلي قطاع غزة بكيلومتراته المربعة الصغيرة وسكانه المليون ونصف. يتحدثون عن «العملية الموسعة» المزمعة، مع انها في ذروتها الآن. مئات «المطلوبين الكبار» قتلوا. المعابر الحدودية مغلقة. المواطنون والمسلحون يُقتلون يوميا. المعارك الجارية بين الجيش والعصابات والفصائل تبدو وكأنها قد استنسخت من العراق. اجهزة التربية والرفاه والاقتصاد انهارت وأصبحت مصطلحا نظريا.

وهنا ايضا كما في العراق بدأوا يتحدثون عن الحاجة الى ايجاد أحد ما ـ ارهابي أو رجل مافيا ـ لتحمل المسؤولية عن قطاع غزة. في نهاية الاسبوع بدا اقتراح ليبرمان ـ تحويل غزة الى الشيشان وايجاد بطل محلي لعقد صفقة معه ـ بلا أساس، إلا أنه قد يصبح منطقيا بعد حين.

ما الذي يدفع الولايات المتحدة واسرائيل الى مواصلة الاختناق في داخل قوتهما؟ والدوران في دوامة النشوة الذاتية وكأنه لا يوجد طريق آخر؟ المسألة هي أنهما غارقتان في الرغبة في احراز نصر واحد ومن ثم المغادرة. الأهداف الاستراتيجية منسية، والصراع الأساسي تقزم الى مستوى حرب الجيش ضد العصابات، والسؤال الملح الآن هو أي مطلوب كبير سنقتل غدا. تماما مثل احصاء عدد رؤوس نشطاء القاعدة المقتولين في افغانستان، أو عدد الارهابيين المقتولين في العراق.

هناك حل لوضع هاتين الدولتين البائس، ولكنه حل مهدد من الناحية السياسية. في العراق يعني هذا الحل انسحابا امريكيا كاملا واعترافا تاما بالفشل. وربما خسارة الجمهوريين للادارة القادمة ونقل العراق الى تأثير ايران المباشر وتقسيمه الى فيدراليات وربما تغيير السياسة تجاه ايران لضمان عدم تحول العراق الى تهديد استراتيجي مرة اخرى.

أما في اسرائيل فيعني ذلك العودة الى خطة الانطواء والتفاوض مع حكومة حماس والادراك بأنها لن تعترف باسرائيل وانها ستكتفي بهدنة طويلة أو قصيرة. في كلتا الحالتين يتعلق الأمر بالتنازل عن مبادىء كانت منطقية قبل الحرب، ولكنها أصبحت حجر عثرة على طريق انهائها.

السؤال الآن هو فقط متى ستترجم مشاعر الاختناق التي تسببت بها هذه المبادىء الى سياسة منطقية؟ امريكا بدأت بالازرقاق، أما اسرائيل فلم تفهم بعد أنها غارقة عميقا داخل ربطة عنقها.

تسفي برئيل
مراسل الشؤون العربية
(هآرتس) 2006/11/5

الترفيعات والتعيينات التي قام بها رئيس الاركان لا تروق للكثيرين من السياسيين ولا تلقى ترحيبا من الصحافة الاسرائيلية

■ التعيينات الجديدة التي قام بها رئيس الاركان، والتي تشمل قادة الفرق التي قاتلت في الحرب الأخيرة في لبنان، قوبلت بعداء واضح من قبل الصحف والاعلام والعديد من السياسيين. وادعاء الجميع بأن الحديث يدور عن قادة كانوا قد «فشلوا»، لذلك يجب إبعادهم وليس اعطاءهم وظائف قيادية جديدة.

مثل هذا الادعاء يرتكز كما هو واضح، على أن الجيش الاسرائيلي «فشل» في هذه الحرب الأخيرة. في السياق سوف نتعرض لمثل هذا الادعاء ونناقشه. أما من ناحية سياسة التعيينات، يمكن القول بأن عدم الصبر وتحمل الأخطاء يمكن أن يؤدي الى مثل هذه النتائج الخطيرة. فانسان يعمل في اطار معين لا يستطيع الامتناع عن ارتكاب الأخطاء، لان من لا يعمل لا يخطىء. ومن هنا، فان سياسة الـ«قطع الرؤوس» سوف تتسبب بايجاد جيل من الضباط لا يستطيع القيام بأي عمل، ولن يتحمل أية مخاطر، ولن يتجرأ على التجديد. أي بمعنى آخر، لن يتجرأ على القيام بأي تحديات يرتكز عليها أمن الدولة، وهذا يعتبر خطرا أمنيا.

يُعلمنا التاريخ ان هناك عسكريين معروفين ومشهورين، لم تتراجع المدائح التي تُكال اليهم حتى الآن رغم انهم كانوا مسؤولين عن أخطاء وحالات فشل كبيرة. وعلى سبيل المثال، فان تشرتشل، الذي بادر في الحرب العالمية الاولى الى القيام بعملية «غليبولي»، التي نال فيها الجيش البريطاني خسارة كبيرة وجيشه تحمل خسائر كبيرة على الارض التركية، فمثل تلك المعركة التي انتهت بكارثة عسكرية كبيرة تحملها البريطانيون لم ينجم عنها المطالبة بالتحقيق، ولجنة تحقيق اسرائيلية كانت ستقطع رأس تشرتشل وتُبعده عن دوره ووظيفته الأمنية. ولكن مع ذلك، فان نشوب الحرب العالمية الثانية دفع تشرتشل الى ان يكون في مقدمة المسؤولين العسكريين هناك، وبالفعل كان الرجل العسكري الاول والأعلى في بريطانيا، بل والاسطوري في الحرب العالمية الثانية، والباقي كله تاريخ معروف. على اعتقاد ان قادة الفرق التي قاتلت في لبنان، ارتكبوا أخطاء ليست نابعة من الاهمال، وان الحديث ايضا عن اشخاص مؤهلين وقادرين، فان رئيس الاركان يكون قد صدق عندما لم يخضع للضغوط الاعلامية وقام بتعيينهم في وظائف جديدة. العميد موشيه تشيكو تامير، كتب في كتابه المعروف «حرب دون إنذار»، الذي يصف الحرب في لبنان وحتى الانسحاب من هناك عام 2000، ان للواء عميرام لفين كانت سياسة واضحة متميزة تتلخص في اعطاء حرية العمل لمرؤوسيه، وكذلك اعطائهم الدعم والغطاء الكامل عندما اخطأوا ولم يكن خطأهم ناجماً عن الاهمال. وهذه الخطوة لكي لا يصيب ارادتهم أو يضرهم عندما قاموا بمبادرات عسكرية لم تكن ناجحة في النتيجة العامة، عندما أخذوا مخاطر على مسؤوليتهم. فهذه السياسة التي اتبعها اللواء لفين كانت سياسة صحيحة وجريئة. عندما يكون للحوار العام في الدولة مثل هذه الهيمنة على الحرب، يبدو أننا قد انتقلنا من حالة الانتقاد العامة الى الانتقاد المهني لكي نخفف عن أنفسنا مقدار الصدمة التي تكون على حدود الواقع. في الحرب كانت هناك بعض الامور التي تستحق الانتقاد الحاد، ولكن لمعرفة الجميع ان الحرب ليست عبارة عن مناورة أو تدريب أو ما نقرأ عنه في كتاب، بل ميدان قتال يوجد فيه في نفس الوقت عدم وضوح، ومعلومات قليلة، وبلبلة، ونار ودخان، شعور بالقتل ومواجهة القتل ايضا. مثل هذه الامور التي كانت وما زالت معروفة هي التي تحدد القيم الصحيحة في الوقت الصحيح.

الادعاء بأن الحرب الأخيرة هي «فشل» للجيش الاسرائيلي، لا يتفق مع الواقع والحقائق. لقد فقد حزب الله قدرته وسيطرته في جنوب لبنان. وموقفه ووضعه في لبنان أصبح ضعيفا، ووجود مسؤوليته وتواجده ايضا، في نظر الاغلبية اللبنانية، أنه كان متسببا بهذه الحرب التي تسببت بخراب لبنان، وان المئات من عناصره قد قُتلوا، وهناك الكثير من الضربات التي لم يحلم بها حسن نصر الله، الملاحق حتى اليوم، ولم يحلم بها في أكثر أحلامه سوادا. إن الانجاز الرئيس لحزب الله في قدرته على اطلاق الصواريخ لمدى قصير ظل حتى نهاية الحرب. هذا الانجاز ظل مُحافظا عليه ليس بسبب ان المستوى السياسي عندنا لم يسمح للمزيد من العمليات البرية الواسعة التي كانت تقوم بها ثلاث فرق، والتي كانت بمحتواها تريد الاستيلاء على المجال الواسع الذي منه تنطلق هذه الصواريخ قصيرة المدى.

خلاصة القول: لقد حان الوقت للتيقظ، وللتوقف عن الاحتفال بالمعاقبة الذاتية، بل استخلاص العبر الصحيحة وايجاد سياسة صحيحة للتعيينات داخل الجيش الاسرائيلي، التي تُرفع أصحاب المبادرة والقدرة المعروفة.

حاييم روزنبرغ
كان مسؤولا عن قسم التخطيط للمدى البعيد في الصناعات العسكرية الاسرائيلية
(معاريف) 2006/11/5

التصدي للصواريخ يتم من خلال العودة للمفاوضات والتوصل الى التسوية

عمليات غزة العدمية تظهر البلادة الحسية ولامبالاة الاسرائيلين بحياة بني البشر.. وذلك سرعان ما سينتقل الينا

اطباء وعاملون في الهلال الاحمر الفلسطيني في الخليل يتظاهرون تنديدا بالحملات الاسرائيلية العسكرية على الاراضي الفلسطينية

■ البلدة تشتعل: هناك حمام دماء في بيت حانون والجيش الاسرائيلي يعربد ويقتل 37 شخصا على الأقل خلال اربعة ايام ـ والرأي العام الاسرائيلي يتثاءب لامباليا. قائد كتيبة قام جنوده بقتل 12 شخصا في يوم واحد: «لقد فزتم بـ 12 : صفر»، والجنود يبتسمون ابتسامة كبيرة. هذا هو الحضيض الاخلاقي الذي هبطنا اليه الآن بعد تدهور طويل في منزلق سحيق: حياة الناس أصبحت رخيصة في نظرنا.

أحد الأدلة على ذلك ورد في نهاية الاسبوع على لسان رئيس شعبة القوى البشرية، الجنرال يوآف شتيرن والذي يتفوه بين الحين والآخر بأمور صحيحة «الحساسية الزائدة لحياة الناس تسببت في جزء من الاخفاقات العسكرية في لبنان.. وهذه مسألة لا يتوجب ان تحدث» قال شتيرن للقناة السابعة. يتوجب الثناء على الجنرال لما قاله من امور مباشرة: من يخرج بسهولة من حرب اختيارية خاسرة لا يمكنه أن يسمح لنفسه بامتياز إبداء الحساسية لحياة جنوده. الانسان يخرج من الحرب قاتلا أو مقتولا، وهذه مسألة يتوجب قولها مسبقا.

ولكن اقوال الجنرال تلك كانت مصابة بالنفاق والمداهنة: من يقتل خلال عدة اشهر أكثر من ألف لبناني و300 فلسطيني لا يملك حق التحدث عن الحساسية لحياة بني البشر. حقيقة ان الاحتجاج ضد الحرب لم يجد أصداء ملائمة تبرهن على أننا قد فقدنا الحساسية لحياة الآخرين بصورة نهائية. نحن نبدأ في فقدان الحساسية تدريجيا لحياة أبنائنا الذين يُقتلون عبثا. رُخص حياة الناس يبدأ بالعرب وينتهي بحياة اليهود. أي طريق طويلة اجتزنا منذ الشعارات المنافقة حول «طهارة السلاح» الى ان زال هذا الشعار تماما من قاموسنا. وأي درب شاق قطعناه منذ ان اعتدنا على التفاخر بأننا نحاول ـ خلافا للعرب ـ عدم المس بالأبرياء. والآن جاءت حرب لبنان بأرقامها الفزعة ليتبين ان اسرائيل قتلت عشرة أضعاف من قتلهم حزب الله، لا بل ان عدد الجنود الذين قتلهم حزب الله كان ثلاثة أضعاف المدنيين على عكس اسرائيل تماما. سلاح من الأكثر طُهرا هنا اذا؟ صحافي بريطاني من «الغارديان» يتجول في البلاد في هذه الايام، ذهل عندما سمع أننا لم نناقش هذه المعطيات أبدا على المستوى الجماهيري.

لم ينهض أحد في اسرائيل ليسأل من هم القتلى، وهل كانوا جميعا يستحقون الموت، وما هي الجدوى الناجمة عن قتلهم بصورة جماعية. عدا عن الأرقام المفزعة للقتلى النساء والاطفال يتوجب التساؤل ايضا اذا كان كل مسلح في غزة ـ وهناك عشرات الآلاف منهم ـ يستحق القتل من دون محاكمة. في اليوم الذي بدأ فيه الجيش الاسرائيلي عمليات الاغتيال قُضي أمر الحساسية لحياة بني البشر، وقُدر لها أن تزول من عندنا تماما.

الجيش الاسرائيلي يعمل في بيت حانون منذ عدة ايام وعملية «غيوم الخريف» تهدف كما يزعمون الى ضرب قواعد اطلاق القسام، إلا انها جلبت المزيد من القسام على سدروت الى جانب القتل والدمار والرعب الذي يزرعه الجنود في قلب هذه البلدة ذات الثلاثين ألف نسمة. كنت في بيت عائلة أبو عودة من بيت حانون مرتين في الآونة الأخيرة: في المرة الاولى دمرت قذيفة منزل العائلة. وفي المرة الثانية قتل الجنود رب العائلة وابنه وابنته من دون ذنب اقترفوه. وهذا كان قبل «غيوم الخريف».

وكيف تغطي الصحافة الاسرائيلية «غيوم الخريف»؟ في «معاريف» الصادرة يوم الخميس يمكنك ان تجد فقط خبرا صغيرا عابرا حول قتل عشرة فلسطينيين في يوم واحد. أما «يديعوت احرونوت» فلم تتصرف بصورة مغايرة. الصحيفتان الكبريان في البلاد تظهران نهجا ينزع الشرعية بصورة مثيرة للفزع والقشعريرة. كما ان قول المحلل العسكري لـ«يديعوت احرونوت» اليكس فيشمان بأن أحد أهداف العملية العسكرية هو تدريب القوات استعدادا للعملية الموسعة الكبرى، لم يُثر هنا أي احتجاج هو الآخر. الجيش الاسرائيلي يخرج في «عملية تدريبية» في منطقة مأهولة في قلب بلدة مكتظة بالسكان زارعا القتل والدمار ـ أوليس هذا تبخيسا مخيفا بحياة بني البشر؟.

القتل اليومي في غزة لا يحظى بالذكر تقريبا. العمليات الفارغة التي تهدف الى اعادة ترميم كرامة الجيش الاسرائيلي المفقودة لا تثير أي نقاش حول هدفها ومستواها الاخلاقي وجدواها. لا يتساءلون هنا عن التناسب بين أضرار صواريخ القسام وبين درجات القتل والدمار بما فيها قصف محطة الطاقة التي تخدم مليونا ونصف مليون انسان يعيشون في ظروف الفاقة والمجاعة.

هذه العمليات الفارغة العدمية لن توقف سقوط الصواريخ التي ترمي الى تذكيرنا نحن والعالم بطريقة مؤلمة بضائقة سكان غزة المحبوسين والمقاطعين والذين لم يكن أحد لينتبه الى وضعهم لولا الصواريخ التي يطلقونها. الطريقة المطلوبة للتصدي للصواريخ تكمن في ايقاف المقاطعة والجلوس الى طاولة المفاوضات والتوصل الى التسوية، وإلا، فاننا سنواصل تدهورنا في المنحدر ونبقى لامبالين بحياة الناس عندهم، ومن ثم عندنا. فلتصغوا الى ما يقوله الجنرال شتيرن.

جدعون ليفي
كاتب في الصحيفة
(هآرتس) 2006/11/5

اسرائيل في ازمة عميقة مضامينها الأساسية.. المخاوف من جهة والتخويف من جهة اخرى

على اولمرت التوجه نحو طريق السلام مع الفلسطينيين وعدم النظر اليهم فقط عبر فوهة البندقية ومن وراء الحاجز المغلق

■ مراسم تأبين اسحق رابين السنوية هي لحظة نتوقف فيها للحظة، ونتذكر رابين الشخص والقائد، وننظر الى أنفسنا والى المجتمع الاسرائيلي والى القيادة والمزاج القومي، ووضع عملية السلام. ليس من السهل أن نتمعن في أنفسنا في هذه السنة.

حدثت حرب. شنت فيها اسرائيل عملية عسكرية هائلة، ولكن عجزها وهشاشتها ظهرت من خلال ذلك، وتبين لنا ان القوة العسكرية التي نملكها لا تستطيع لوحدها أن تضمن وجودنا. اكتشفنا بصورة أساسية أن اسرائيل موجودة في ازمة عميقة، أعمق بكثير مما قدرنا وفي كل أنظمة حياتها.

أنا أتحدث هنا باعتباري واحدا يحب هذه البلاد حبا صعبا ومركبا. ورغم ذلك، فان هذا الحب قاطع. وباعتباري شخصا تحول تحالفه معها، ويا للمصيبة، الى حلف دموي، أنا انسان علماني تماما، ورغم ذلك فانني أعتبر أن اقامة دولة اسرائيل هي معجزة سياسية وقومية وانسانية. أنا لا أنسى ذلك ولا للحظة واحدة. حتى عندما تكون هناك في حياتنا امور كثيرة مثيرة للغضب والألم، وايضا عندما تنشطر المعجزة الى قطع صغيرة من الروتين والبؤس والفساد والسخافة، وايضا عندما يبدو الواقع مثل مهزلة سيئة، فان المعجزة تبقى حية في ذاكرتي.

«انظري أيتها الارض كيف كنا مُسرفين جدا»، كتب الشاعر شاؤول تشرنيخوبسكي في عام 1938، هو اشتكى من أننا ندفن الشبان الصغار في قلب ارض اسرائيل وهم في ريعان الشباب.

موت الشبان الصغار هو إسراف ومضيعة فظيعة وصارخة. ولكن الأفظع من ذلك هو الشعور بأن اسرائيل تقوم منذ سنوات طويلة باهدار حياة أبنائها، والمعجزة التي اجترحتها بطريقة اجرامية هي تضييع الفرصة الكبيرة النادرة التي منحها لها التاريخ، فرصة اقامة دولة حضارية متنورة طبيعية وديمقراطية تتصرف وفقا للقيم اليهودية والعالمية الشمولية. دولة تكون وطنا وملجأ، ولكن ليس ملجأ فقط، بل ومكانا يضفي معنى جديدا على الوجود اليهودي. دولة يكون جزءا هاما من هويتها اليهودية وقيمها اليهودية قائما على المساواة الكاملة والاحترام لمواطنيها غير اليهود.

أنظروا ماذا حدث للدولة الشابة الجريئة. الحماسة الكبيرة والروح المتقدة التي كانت هنا، الا ان اسرائيل سارعت الى التقدم نحو الشيخوخة من مرحلة الرضاعة والطفولة المبكرة لتصل الى وضع مزمن من الانحلال والوهن ومشاعر الخيبة والفرص الضائعة. كيف حدث ذلك؟ متى فقدنا حتى الأمل بأن نتمكن في يوم ما من ان نحيا حياة اخرى أفضل من هذه؟ والأكثر من ذلك كيف نواصل اليوم ايضا الوقوف جانبا والنظر مثل من أصابهم التنويم المغناطيسي الى هيمنة الجنون والغلظة والعنف والعنصرية على بيتنا؟.

وأنا سأسأل، كيف يُعقل ان شعبا ذا قدرات إبداعية خلاقة ومتجددة كشعبنا، شعبا عرف كيف ينهض من الرماد مرة تلو الاخرى، يجد نفسه اليوم ـ تحديدا حيث توجد لديه قوة عسكرية هائلة ـ في وضع الانبطاح والعجز؟ وضعا يعود فيه الى صورة الضحية ولكن في هذه المرة ـ ضحية لنفسه ولمخاوفه ويأسه وقصر نظره؟.

أحد الامور الصعبة التي أبرزتها الحرب الأخيرة هو الشعور أنه لا يوجد لاسرائيل ملك في هذه الايام. ان قيادتنا فارغة خاوية، القيادة العسكرية والسياسية. وأنا لا أتحدث الآن عن الاخفاقات الظاهرة للعيان حول ادارة الحرب واهمال الجبهة الداخلية، ولا عن الفساد الصغير والكبير، وانما أتحدث عن ان الاشخاص الذين يقودون الدولة غير قادرين على ربط الاسرائيليين بهويتهم. ولا ربطهم بالأجزاء السليمة الخصبة من هذه الهوية.

المضامين الأساسية التي تقوم قيادة اسرائيل اليوم بلعبها هي مضامين المخاوف من جهة والتخويف من جهة اخرى. إدخالنا في سحر القوة ودسائس المضمون، لا يمكن القول أنهم قادة حقيقيون، خصوصا في مثل هذا الوضع المعقد. في بعض الاحيان يبدو أن صدى أفكارهم وذاكرتهم التاريخية ورؤيتهم وما يهمهم فعلا موجودة كلها في الفراغ الصغير الواقع بين عنوانين صحافيين، أو بين تحقيقين من المستشار القضائي للحكومة.

أنظروا الى اولئك الذين يقودوننا. ليس جميعهم طبعا، ولكن مجموعة كبيرة منهم. أنظروا الى طريقة عملهم المذعورة الفزعة الشكاكة المتعرقة، والى سلوكهم الدفاعي الماكر والدساس. من السخيف بمكان ان نأمل ان تأتي التوراة منهم، وان يأتونا بنبوءة ورؤيا جريئة قادرة على التحليق. متى كانت المرة الأخيرة التي طرح فيها رئيس الوزراء فكرة أو خطوة قادرة على فتح أفق واحد جديد للاسرائيليين؟.

سيدي رئيس الوزراء، أنا لا اقول هذه الامور من خلال مشاعر الغضب أو الانتقام. أنتظر بما فيه الكفاية حتى لا أرد من منطلق عاطفي غريزي عابر. أنت لا تستطيع أن تقول لي انني منفعل، ولذلك ليس مهما ما أقوله، أنا بالتأكيد حزين، ولكنني متألم أكثر من كوني غاضبا. متألم لهذه البلاد وما تفعله أنت ورفاقك فيها. صدقني، نجاحك يهمني لأن مستقبلنا جميعا يعتمد على قدرتك على النهوض والقيام بعمل ما.

اسحق رابين توجه نحو طريق السلام مع الفلسطينيين، ليس لانه شعر بحب كبير لهم ولزعيمهم. حينئذ ايضا، كما نذكر، كان اجماع بأننا نملك شريكا عند الفلسطينيين. رابين قرر القيام بشيء ما لانه لاحظ بفطنة كبيرة ان المجتمع الاسرائيلي لا يستطيع أن يواصل بقاءه على المدى الزمني مع صراع غير محلول، هو أدرك قبل الكثيرين غيره ان الحياة في مناخ متواصل من العنف والاحتلال والارهاب والخوف وانعدام الأمل، تُكلف اسرائيل ثمنا لا تستطيع تحمله.

هذه الامور صحيحة اليوم ايضا، وبحدة وقوة أكبر. وقبل ان نتحدث عن الشريك الموجود أو غير الموجود، علينا ان ننظر الى أنفسنا أولا. أكثر من مئة عام ونحن نعيش في صراع. نحن مواطني هذا الصراع ولُدنا داخل الحرب وتربينا في أتونها وتبرمجنا اليها بدرجة معينة. ربما كان هذا السبب لاعتقادنا ان الجنون الذي نعيش فيه أكثر من قرن هو الأمر الحقيقي الوحيد والحياة الوحيدة التي قُدرت لنا، وأننا لا نملك امكانية أو حقا حتى للتطلع الى حياة اخرى: قُدر لنا أن نعيش على الحراب، وأن نأكلها الى الأبد. لعل هذا هو التفسير لعدم الاكتراث الذي نسلم فيه بالكف التام في المسيرة السلمية، الكف الذي يتواصل منذ سنوات عديدة، ويجبي المزيد فالمزيد من الضحايا. هكذا يمكن لنا ان نفسر ايضا انعدام الرد من معظمنا على الركلة الفظة التي تلقتها الديمقراطية مع تعيين افيغدور ليبرمان كوزير كبير، مع تعيين هذا المتغطرس لادارة خدمات اطفاء النار في الدولة.

وهذه أيضا جزء من العوامل في أنه في غضون وقت قصير على نحو مذهل تدهورت دولة اسرائيل الى انغلاق القلب، الى وحشية حقيقية، تجاه الضعيف، والفقير والمعاني. عدم الاكتراث هذا تجاه مصير الناس الجوعى، الشيوخ، المرضى والمقعدين، هذه اللامبالاة من دولة اسرائيل بالنسبة للاتجار بالنساء مثلا، أو استغلال العمال الاجانب في شروط عبودية، العنصرية العميقة، المؤطرة مؤسساتيا، تجاه الاقلية العربية ـ فيما أن كل هذه الامور تجري هنا بطبيعية تامة دون صدمة ودون احتجاج. واني ابدأ في الخوف من أنه حتى لو حل السلام غدا، حتى لو عدنا في اي مرة كانت الى اي طبيعية كانت، لعلنا نكون قد تخلفنا عن موعد الشفاء التام.

المصيبة التي حلت بعائلتي وبي، مع سقوط ابننا اوري، لا تمنحني فضلا من الحقوق في النقاش العام. ولكن يخيل لي بأن الوقوف امام الموت والفقدان يجلب معه ايضا نوعا من الصحوة والصفاء، على الاقل فيما يتعلق بالتمييز بين الاساس والتافه. بين ما يمكن تحقيقه وبين ما لا يمكن تحقيقه. بين الواقع والهذيان.

كل ذي عقل في اسرائيل، واضيف، في فلسطين ايضا ـ يعرف اليوم بالضبط خطوط الحل الممكن للنزاع بين الشعبين. كل ذي عقل، عندنا وعندهم، يعرف في أعماق قلبه أيضا الفارق بين الاحلام والاماني وبين ما يمكن تحقيقه في نهاية المفاوضات. من لا يعرف ذلك ـ وهو منذ الان ليس شريكا في الحوار، سواء كان يهوديا أم عربيا ـ فهو عالق في تطرفه، على نحو محكم، وعليه، فانه ليس شريكا.

ننظر للحظة الى من يفترض به ان يكون شريكنا. الفلسطينيون وضعوا على رأسهم حماس، التي ترفض التفاوض معنا بل وترفض حتى الاعتراف بنا. ما الذي يمكن عمله في مثل هذا الوضع؟ ماذا يمكن لنا أن نعمله غير ذلك؟ ان نواصل وان نخنقهم اكثر فأكثر؟ أن نواصل ونقتل مئات الفلسطينيين في غزة، والاغلبية الساحقة منهم مواطنون أبرياء، مثلنا؟

توجه الى الفلسطينيين يا سيد اولمرت. توجه اليهم من فوق رأس حماس. توجه الى المعتدلين بينهم، اولئك الذين يعارضون مثلك ومثلي حماس وطريقها. توجه الى ابناء الشعب الفلسطيني. تحدث الى جرحهم العميق، اعترف بمعاناتهم المتواصلة. لا شيء سينقص منك ومن موقف اسرائيل في المفاوضات المستقبلية. وحدها القلوب ستنفتح قليلا تجاه بعضها البعض، ولمثل هذا التطور قوة هائلة. قوة الطبيعة الشديدة هناك للرحمة الانسانية البسيطة، وبالذات في وضع الجمود والعداء.

مرة واحدة انظر اليهم ليس فقط عبر فوهة البندقية وليس من وراء الحاجز المغلق. وأنت سترى هناك شعبا معنى ليس اكثر منا. شعبا محتلا ومقموعا وعديم الامل. وبالتأكيد الفلسطينيون ايضا مذنبون بالمأزق. بالتأكيد هم أيضا لهم نصيب كبير في فشل المسيرة السلمية. ولكن انظر اليهم للحظة نظرة اخرى. ليس فقط الى المتطرفين منهم. ليس فقط الى اولئك الذين لديهم حلف مصالح مع متطرفين. انظر الى الاغلبية الساحقة لهذا الشعب البائس، الذي يرتبط مصيرنا بمصيره، شئنا أم أبينا.

اذهب الى الفلسطينيين يا سيد اولمرت. لا تبحث كل الوقت عن الاسباب في عدم الحديث معهم. عن الانطواء احادي الجانب تنازلت. وحسنا فعلت. ولكن لا تبقَ فراغا. فهو سيمتلىء على الفور بالعنف والخراب. تحدث اليهم، تقدم لهم باقتراح يمكن للمعتدلين منهم أن يقبلوه (وهم أكثر بكثير مما تظهره لنا وسائل الاعلام). تقدم اليهم بمثل هذا الاقتراح، بحيث يكون عليهم ان يقرروا اذا كانوا سيستجيبون له، ام يفضلون البقاء رهائن في ايدي الاسلام المتزمت. تقدم اليهم بأكثر خطة شجاعة وجدية يمكن لاسرائيل أن تقترحها باقتراح يعرف كل اسرائيلي وفلسطيني له عينان في رأسه بأنه حدود الرفض والتنازل، لدينا ولديهم. واذا ما تلبثت ـ فبعد وقت قصير سنتوق الى ما في الارهاب الفلسطيني من هواية. سنضرب رأسنا ونصرخ، كيف لم نستخدم كل مرونة تفكيرنا، كل الابداع الاسرائيلي كي تجتث اعداءنا من ورطتهم الذاتية الخاصة بهم.

يوجد ايضا سلام لا مفر. بالضبط مثلما توجد حرب اللامفر، اذ لم يعد هناك مفر. لا مفر لنا، ولا مفر لهم. والى سلام اللامفر يجب الانطلاق بذات التصميم والابداع، مثلما ننطلق الى حرب اللامفر. إذ لا مفر. ومن يظن ان هناك مفراً وان الزمن يعمل في صالحنا، لا يدرك السياقات العميقة الخطيرة التي نوجد في ذروتها.

وبشكل عام، سيدي رئيس الوزراء، ربما ينبغي تذكيرك بأنه اذا كان زعيم عربي ما يطلق اشارة سلام وان كانت اكثرها خفة وترددا ـ فان عليك ان تستجيب له. عليك ان تفحص على الفور صدقه وجديته. ليس لك الحق الاخلاقي في عدم الاستجابة له. انت ملزم بعمل ذلك من أجل اولئك الذين ستطالبهم بأن يضحوا بحياتهم اذا ما نشبت حرب اخرى. وعليه، فاذا كان الرئيس الاسد يقول ان سورية تريد السلام، حتى لو لم تكن تصدقه ـ وجميعنا شاكون تجاهه ـ فان عليك أن تقترح عليه اللقاء في نفس اليوم.

لا تنتظر حتى ولو ليوم واحد. فعندما انطلقت الى الحرب الاخيرة لم تنتظر حتى ولو لساعة. انقضضت بكل القوة. بكل السلاح. بكل قوة الدمار. فلماذا عندما يكون هناك شعاع من السلام ترفضه على الفور، تذيبه؟ ماذا لديك لتخسر؟ تشك بالرئيس السوري؟ اذهب واقترح عليه شروطا تكشف مؤامرته. اقترح عليه مسيرة سلام تستغرق عدة سنوات، وفقط في نهايتها، اذا ما استوفت كل الشروط، كل القيود، سيستعيد الجولان. الزمه بمسيرة حوار طويلة. اعمل بحيث تترسخ في وعي ابناء شعبه أيضا هذه الامكانية. ساعد المعتدلين الذين هم بالتأكيد موجودون هناك ايضا. حاول تصميم الواقع، وليس فقط ان تكون المتعاون معه. لهذا الغرض انتخبت. بالضبط لهذا الغرض. وختاما، مفهوم ان ليس كل شيء منوطا بأفعالنا نحن، وهناك قوى أقوى وأكبر تعمل في المنطقة وفي العالم، وبعضها ـ مثل ايران، مثل الاسلام المتطرف ـ تسعى لطالحنا. وعلى الرغم من ذلك فان الكثير منوط بما نفعل، وبما سنكون عليه. الخلافات اليوم بين اليمين واليسار ليست كبيرة حقا. الاغلبية الساحقة من مواطني اسرائيل يدركون منذ الان ـ وان لم يكن بعضهم كذلك بحماسة كبيرة ـ كيف سيبدو المسار لحل النزاع. معظمنا يفهم بالتالي بأنه اذا ما ستقسم البلاد فان الدولة الفلسطينية ستقوم. لماذا بالتالي نواصل استنزاف أنفسنا في المناكفة الداخلية، المتواصلة منذ نحو أربعين عاما؟! لماذا تواصل القيادة الفلسطينية في أن تعكس موقف المتطرفين وليس موقف اغلبية الجمهور؟ أوليس افضل بكثير سيكون وضعنا اذا ما توصلنا بأنفسنا الى هذا الاجماع الوطني قبل أن تجبرنا الظروف ـ ضغط خارجي أو انتفاضة جديدة، او حرب اخرى ـ على ذلك. واذا ما فعلنا ذلك، فاننا سنوفر على أنفسنا سنين من سفك الدم وضياع الدماء. سنين من الخطأ الرهيب.

من المكان الذي أقف فيه الان، اناشد، ادعو كل من يستمع ـ الشباب الذين عادوا من الحرب، الذين يعرفون بأنهم هم الذين سيكونون مطالبين بدفع ثمن الحرب القادمة، المواطنين اليهود والعرب، اليساريين واليمينيين: توقفوا للحظة واحدة. انظروا الى الهوة، فكروا كم نحن قريبون من فقدان ما خلقناه هنا. اسألوا أنفسكم ان لم يحن الوقت للصحوة، للخروج من الشلل، للمطالبة لانفسنا، اخيرا بالعيش الذي نحن جديرون به.

ديفيد غروسمان
كاتب في الصحيفة
(يديعوت احرونوت) 2006/11/5

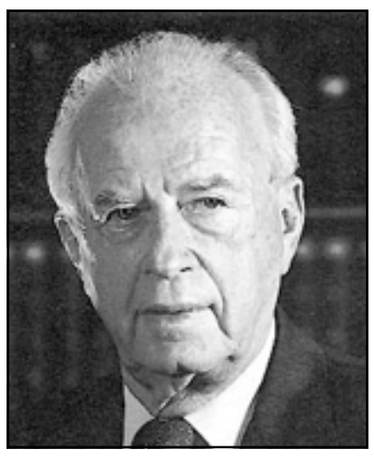
اسحق رابين

ايهود اولمرت